عن المسيح الثائر
وأية ثورة تعني المسيحية

نجيب جورج عوض

منذ سبعينيات القرن المنصرم، ومع انتشار مدرسة لاهوت التحرير من موطن منشأها الأم في أمريكا اللاتينية إلى أمريكا الشمالية أولا ومنها إلى العالمين الأوروبي وغير الأوروبي، وفكرة «المسيح الثائر» تحظى بالجاذبية والشعبية والاهتمام، بل وتتردد على ألسنة شرائح واسعة جداً من المسيحيين حول العالم. تحدَّثَ أبو لاهوت التحرير اللاتيني غوستافو غوتييرز في الربع الأخير من القرن المنصرم عن المسيح الثائر في وجه الاضطهاد والقمع الذي يعاني منه فقراء أمريكا الجنوبية في مجتمعاتهم التراتبية والتصنيفية البنية والهيكلية والتي يتمتع فيها الأغنياء وأصحاب الموارد بالنفوذ ويحظون برضى المؤسسة الكنسية وبركتها وبدعم خطابيها المُعَـلمَن واللاهوتي على حد سواء. وتحدث اللاهوتي التحرري ليوناردو بوف (ومثله كذلك جون سوبرينو) أيضاً عن الحالة اللاإنسانية المزرية التي تعيش فيها خليقة الله المعذبة والمضطهدة والمسحوقة في أمريكا اللاتينية، داعياً الكنيسة إلى تحقيق رسالة المسيح بخدمة مجيء وتحقيق ملكوت الله السماوي من خلال ثورة على ذاتها وعلى فكرها اللاهوتي العنصري الذي يدعم الأقوى وصاحب الموارد على حساب الفقير والضعيف والعاجز. يحمل كل من بوف وسوبرينو موقف الكنيسة هذا لإرثها اللاهوتي الغربي الذي لم يخرج، على حد زعمهما، من رحم سياق أهل أمريكا اللاتينية الواقعي ولم يتشكَّل من قلب سياقهم المعاش على الأرض، بل نزل على رؤوس جماعات المسيح في تلك السياقات من أعلى، من قِبَـلِ سلطة فوقية وصائية تراتبية وتصنيفية جعلت من لاهوت الكنيسة أحد مصادر القمع والسلطوية والوصاية.

لم يطل الأمر بهذا الصوت التحرري الذي طوره لاهوتيون لاتينيون أماثل غوتييرز وبوف وسوبرينو حتى هاجر شمالاً ووصل إلى أمريكا الشمالية لينجذب إليه المسيحيين السود من أصل أفريقي، وليصنع منه اللاهوتي الأفريقي-أمريكي العظيم جيمس كون لاهوتاً تحررياً ضد التفرقة العنصرية واضطهاد الأفارقة السود الأمريكان من قبل المسيحية البيضاء والبورجوازية المتعالية. كما تبنت هذا الصوت في الولايات المتحدة وأوروبا لاهوتيات من النساء أمثال دوروثية ديل سوللي وماري ديلي وسالي ماكفوغ وبعدهن إليزابيث جونسون و روزماري رادفور روثر وإليزابيث شوسللر فيورنزا وسواهن اللذين دعوا لتطوير صوت لاهوتي تحرري يقدم المسيح كحامل خطاب ثورة ضد التفرقة الجندرية والجنسانية والذي قدم نفسه مصلوباً لأجل معاناة كل مهمشة ومضطهدة ومُقصاة بسبب هويتها الجندرية. واليوم ينتشر خطاب اللاهوت التحرري عن المسيح الثائر حول العالم بدون مبالغة، ويتم إسقاط هذا الخطاب التحرري على كافة مناحي وحالات وسياقات العيش البشري على امتداد الكوكب، إذ يردد الكثيرون من المسيحيين حول العالم خطابات تتحدث عن المسيح على أنه ثائر ومتمرد ومقاوم وتبحث عن تجسدات له في شخصيات بشرية ثورية أمثال تشي غيفارا والمهاتما غاندي وسواهم.

لم يقتصر هذا التثوير المنهجي والفكري للمسيح على الأوساط المسيحية الشعبية والعامة والكنسية المعاشة. بل إن خطاب المسيح الثائر والمقاوم والمتمرد نال اهتمام فريق كبير من الباحثين اللاهوتيين المسيحيين الأكاديميين والجامعيين من أتباع ما ندعوه مدرسة الجيل الثالث من الباحثين في مسألة يسوع التاريخي، أي أولئك الباحثين اللاهوتيين الذي تعلموا على مناهج التفكير الألمانية التي انتقدت موقف رودولف بولتمان الابستمولوجي من مسألة يسوع التاريخي (ما ندعوه بالجيل الثاني من الباحثين في مسألة يسوع التاريخي) وتشكيكه بإمكانية تشكيل جسر معرفي موثوق يصلنا اليوم بتاريخ يسوع الإنسان الذي عاش منذ ألفي عام ومن ثم دعوته لإخراج النص الكتابي للأناجيل من الهوس بالتاريخانية من جهة ومن الاستسلام للأسطرة من جهة أخرى. قام تلاميذ بولتمان من أمثال إرنست كيزمان وهانس كونزلمان وغونتر بورنكام بنقد أطروحة استاذهم وأعادوا إحياء التساؤل التاريخ عن يسوع الناصري. إلا أنهم لم يبحثوا أكثر في من كان يسوع في تاريخه الشخصي، بل اهتموا بربط تاريخ يسوع الشخصي (أو ما نعرفه عن هذا التاريخ) بتاريخ المسيحية المعاصرة من خلال فعل تأويل هرمنيوتيكي إسقاطي (اهتموا بمسألة الخريستولوجية التاريخية عوضاً عن مسألة يسوع التاريخي) . تبنى الكثير من الباحثين بمسألة يسوع التاريخي في العالم البريطاني والأمريكي الشمالي هذا النهج وراحوا يبحثون عن معانٍ تاريخية وسياقية ليسوع الإنسان ولإرهاصات مسيرته الإرسالية المجتمعية والإنسانية والسياسية

والسوسيولوجية والوجودية والسيكولوجية وسواها يمكنهم أن يواصلوا بينها وبين حالات وأبعاد مماثلة تخص سياق الوجود البشري اليوم. من هذا السياق نشأ معرفياً ما يسمى بـ «الإنجيل الاجتماعي» في ظهرانين المسيحية الأمريكية الشمالية، والذي يمثل خطاب مسيحي شائع وشعبي جداً في حياة المسيحيين في الولايات المتحدة ودور الكنيسة في الشأن العام عموماً.

من جهة أخرى، وفي سياق نفس تلك المسيحية الأكاديمية المعنية بمسألة يسوع التاريخي، تم أيضاً تسييس الخريستولوجيا من خلال الحديث عن يسوع الناصري على أنه كان تاريخياً أحد الثوار اليهود المتمردين على السلطات الدينية والزمنية في عصره. بعض الباحثين مضوا إلى حد الاقتراح بأن يسوع انتمى سرياً (مثل يهوذا الأسخريوطي) إلى جماعة من الغيوريين اليهود الذين كانوا يحلمون بالثورة السياسية ضد النظام الروماني الحاكم ويعملون للانتفاض عليه ودحره بالقوة. بعض الباحثين الآخرين قام بتخفيف اللهجة السياسية لهذا الخطاب اللاهوتي من خلال إعطاء رسالة يسوع السياسية بعداً أخلاقياً سلوكياً معني بالسياسة بمعنى الشأن العام وليس السلطة. فعل أولئك ذلك بأن قدموا يسوع على أنه قائد وملهم انتفاضة مجتمعية أخلاقية على قيم المجتمع وممارساته التصنيفية والتراتبية والإقصائية واللاأخلاقية عموماً. ونجد أيضاً على الساحة أصحاب خطاب مسيحي شعبوي تسويقي عام، وهم من المعتنين بمسألة يسوع التاريخي ولكن ليس من زاوية معرفية بحثية جادة، بل من نفاذ شخصي شعبوي منبهر بفكرة البطل والبطولة. هؤلاء هم من يركنون إلى تبني المقولات الشعبية التي ترى في يسوع بطلاً تحررياً وقائد ثورة ونبي مقاومة ونضال، تماماً مثل «تشي غيفارا» و«المهاتما غاندي» و«مارتن لوثر كينغ» وحتى «مالكولم إكس». لا بل إنَّ بعضهم يسوّق للمسيح البطل الثائر الذي يصرخ أمام المسيحيين دعوة إلى ثورة على المسيحية ذاتها من خلال دفعهم لاتباع مسيانيته الثائرة والمقاومة وللتمرد على المسيحية وعلى المؤسسة الكنسية والسلطة الدينية وحتى على الله الذي تنادي به الكنيسة: «إن كنت تريد التحرر، اتبع المسيح وانكر إله الكنيسة»، يقول أحد شعارات هذا الخطاب.

ليس، إذاً، خطاب المسيح المقاوم والمسيحية المسيانية الثائرة بالخطاب الجديد أو المستجد على المسيحية المعاصرة، ولا هو باختراع مابعد-حداثوي طارئ أو دخيل أو غريب عليها. وهو اليوم بات أيضاً خطاباً شعبياً جميلاً يجذب الكثير من المسيحيين المشرقيين والعرب ويدغدغ أحلامهم الوجودية بالانعتاق والتحرر والتغيير التي يحلمون بها وبتحقيقها في سياقات عيشهم في منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي. لا بل وقد بدأنا نشهد أيضاً تنامياً شعبوياً وسلطوياً لاستخدام أفكار مستقاة ومُستخدمَة بشكل مضمر من لاهوت المسيح الثائر والمسيحية التحررية الثورية في خطابات مسيحية وغير مسيحية سياسية يستخدمها سياسيون إما لتحفيز غرائز الجمهور وتنشيط عصبياته الضيقة، أو نراهم يستخدمون أفكاراً مضادة تماماً لفكرة ثوروية المسيح والمسيحية، مثل فكرة أن المسيح مسالم ورسول السلام والاستسلام والمسامحة التصوفية وبذل الذات. وهم يشدّدون على تلك الأفكار كي يعزّزوا ثقافة الخنوع والسكينة واللامبالاة في ظهرانين الجماعات المسيحية في المجتمع. في العالم المسيحي العربي والمشرقي، هناك مرجعيات دينية وسياسية وشعبية وثقافية تدعو إما تبني على خطاب مسياني ثوروي شعبوي يعلن المسيح المقاوم، أوتطوِّر خطاب مناهض للأول يدعو لرفضه من خلال تسليط الأضواء على المسيح المسالم والمضحي والداعي للمحبة والسلام.

يُستخدَم، إذاً، خطاب المسيح «الثائر-ضد-المسالم» في سياق العالم العربي حيث يعيش المسيحيون على أحد وجهين على حد سواء: إما في خدمة تحفيز الشارع المسيحي ودفعه «للانحياز» وأخذ مواقف عدائية ومناهضة ضد أطراف معينة يسعى صاحب الخطاب الانحيازي المذكور للتغلب عليها وسحب بساط الوجود من تحت أقدامها. أو أن خطاب المسيح الثائر يُستخدم خلاف ذلك للحديث عمّا لا يجب على الشارع المسيحي أن يتبناه ويفعله. أي أنَّ فكرة المسيح الثائر تصبح مثالاً عن فخ انحيازٍ ينبغي على المسيحيين، برأي صاحب الخطاب المناهض للانحياز، أن لا يقعوا فيه لأنه يتعارض مع مبادئهم المسيحية، لا بل وينافي صورة مسيحهم الحقيقيّة. يصبح المخيال الخريستولوجي عن المسّيا في إطار خطاب «اللا-انحياز» المذكور تعبيراً عن يسوع مسالم ومتسامح ومستكين ورومانسي وكلّي «الحياد» والمحايدة في مواجهة سياقات عيش أبناء وبنات مجتمعه: إنه مسّيا السلام والحب الأزلي الذي يُعبِّر عن وقوفه المحايد في وجه تيارات الصراع والواقع البشري بإفناء الذات وبذلها برضى وسكينة حتى الموت. بين هذين الخطابين، المتجذرين في فكر ومخيال لاهوتيين ودينيين بامتياز، أي خطاب «الانحياز»

على قاعدة تثوير المسيح وتمرده ومقاومته، وخطاب «المحايدة» على قاعدة تسليم المسيح وتسكينه وتضحيته، يجد المسيحيون المشرقيون والعرب أنفسهم كنسياً ومؤسساتياً اليوم في قلب سياقات المنطقة العربية الملتهبة والمحترقة لا بنيران الثورات فقط، بل وبنيران المقاومات لها ونيران الدعوة لوأدها في نفس الوقت.

هل من لاهوت مسيحي حول هذا الواقع؟ هل من مسيحية ثائرة و مسيح متمرد وثائر يجب الدعوة لها وتبني خطابها وفكرها اللاهوتي الناظم وينبغي على مسيحيي العالم العربي والمشرقي أن يتبنّوها أو يخلقوها بأنفسهم اليوم؟ أقترح أن نجيب على تلك الأسئلة بنعم ولا في نفس الوقت. نعم نحتاج لخطاب وتفكُّر لاهوتيين بموقف ودور المسيحيين من سياقات الثورات والانتفاضات التي يجدون أنفسهم يختبرونها ويقفون في قلبها في سياقات عيشهم في المنطقة. ولكنني أقول أيضاً «لا» صريحة وقوية ضد أي خطاب لاهوتي وفكري مسيحي يبني موقف ثوريّ تجاه الثورة ويدعو لأفعال ثوريّة وتمرديّة مسيحيّة أو لأفعال لاتمردية ولا ثوريّة مسيحيّة انطلاقاً إما من فكرة «المسيح تشي غيفارا» أو «المسيح المقاوم أو الثائر»، أو حتى «المسيح المنحاز»، في الحالة الأولى، أومن فكرة «المسيح المسالم لحد الاستسلام» أو «المسيح الرومانسي» أو «المسيح المحايد»، في الحالة الثانية.

القوام اللاهوتي الكتابي برأيي لفهم علاقة المسيح بالثوران والثورة هو قوله «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يوحنا ٨:٣٢). إن هذا القول، من وجهة نظري، يفيدنا بأن المسيح لا يعتقد أنَّ على اتباعه أن يقفوا أبداً على الحياد في مواجهة معاناة البشر وتعرض الناس للظلم والقمع والقهر والاستبداد والتهميش والتمييز والاضطهاد والموت والحيوَنَة. إلا أن نفس قول المسيح المذكور يمكن أن يفيد بأنَّ اتباعه المتمثلون به غير مدعوين أيضاً للإنحياز. ليست المسيحية التي يمثلها المسيح بموقف وجودي منحاز لمجموع بشري ضد آخر أو لأجندة بشرية ضد أخرى، أو لإرادة بشرية ضد أخرى، أو لأي ظرف بشري معين ضد ظرف آخر، مهما كان هذا الظرف سوداوياً وقهرياً وقمعياً. خرج المسيح في حياته تماماً من كلا الموقفين: خرج من موقف الانحياز حين رفض أن يتبنى أجندة عمليات ثوار غيوريين مثل يهوذا الاسخريوطي مع أنها أجندة أرادت أن تحارب الظلم والاستبداد الروماني ضد شعب يسوع وجماعته اليهودية التي انتمى إليها هوية وثقافة وتاريخ وديانة، كما خرج أيضاً من موقف الحياد السلبي اللامبالي الصرف، حين عبَّر عن موقفه المناصر والمدافع والاحتضاني للمعذبين والمهمشين والمتهمين من بين أبناء جماعته وكذلك عن رحمته وتعاطفه وانفتاحه على المعتبرين أعداء واشرار من الجماعات الأخرى إما المهمشة يهودياً أو غير اليهودية. المسيح وقف شخصياً خارج دائرتي الحياد والانحياز على حد سواء. وحديثه عن الحق الذي يحرر ما هو إلا دعوته للناس للخروج من دائرتي الحياد والانحياز على حد سواء كذلك.

موقف المسيحيّة الثوري وتجسيدها لثوروية المسيح يكمن في وقوفها خارج دائرتي الانحياز والحياد على حد سواء. ما تقف المسيحية معه بصفتها موقف مواجهة تحرّري وتحريريّ هو «الحق». نعم، المسيحية تثور مع الحق وتنحاز لأجله ولا تقف محايدة أبداً تجاه الحقيقة. إلا أنَّ «الحق» والحقيقة بطبيعتيهما يتجاوزان منطقي الحياد والانحياز. أي حقٍ محايد ليس «حقاً» في الحقيقة لأنه لن يكون معنياً بالحقوق التي تستدعي أن ننادي لإجلها بإحقاق الحق. الحق المحايد ليس حقاً لأنه لا ينتج فعل أو تغيير ويصبح فارغ المضمون إذا أنه غير معنيٍ عملانياً بالحقوق وبتأريضها وتمظهرها على الأرض. هو مجرد تنظير وتفكير وتخيُّل لفكرة «الحق» دون وجود للحق بحد ذاته: تفكير بالحق ينوب عن الحق بحد ذاته ويحل محله، بل وينفي موضوعية وجوده ويفرغه من أي معنى أو تأثير واقعي فعلي. من جهة ثانية، أي حقيقة منحازة ليست «حقيقة» إطلاقاً لأنها ستكون نتاج انحيازها للطرف الذي تنحاز إليه وستكون مقومات حقائقيتها نجاحها في خدمة هذا الطرف وفي تحقيق توقعاته وأمنياته. عندها، هذ ليست حقيقة، بل تفسير ووجهة نظر يتم اعتبارها تمثيلاً للحقيقة (وهي في الواقع بديلاً عنها ونفي لها بل وتشكيك بوجود شيء يمكن اعتباره «حقيقة موضوعية») من قبل من تخدمه ومن تستجيب لرغباتها وتخضع لمشروطاته أو مشروطاتها.

الحق الذي يدعو له المسيح هو الحق الذي يحررنا من الحياد والانحياز لفكرة حق تنوب عن الحق الفعلي (لعبة تحذُّرٍ عقلي تنظيري صرف) ولتفسير فوقي يُفرَض على أنه حقيقة وهو بديل عن الحقيقة وتغييب لها (لعبة هرمنيوتيكا توظيفية ذاتويّة واستنسابية). حقّ المسيح هو الحقّ الذي يحرر الإنسان ويفتدي آلامها ومعاناته بعيداً عن التنظير العقلي والاستنساب الهرمنيوتيكي على حد سواء: يعلن حقوقه وحقوقها خارج حدود الهويات الضيقة

والانتمائات والمعتقدات وقواعد السلوك والعيش والوجود والفهم الجزئية والنسبويّة والظرفيّة والتصنيفيّة. هو الحق الذي يثور على الحياد وعلى الانحياز. الحق الذي يقع خارج أي حياد وضدّ أي انحياز. الحقّ الذي يشكل بحد ذاته «ثورة على الثورويّة»: ثورة على كل أنواع الثورات القائمة لخدمة إمّا الحياد أو الانحياز. هذا الحق الذي إن عرفناه سيحررنا، يقول المسيح. هذا الحق المسياني هو نفسه الذي يدفع فكرياً فيلسوف ثائر مثل فريدريش نيتشه، مثلاً، ليدعو البشرية لخوض غمار رحلة معرفية متحررة من كل معادلات الخير والشر ومن كل اشتراطات وتوقعات وغايات رسم صورة الوجود البشري وتحديد قيمته وماهيته على قاعدة «خير- ضد - شر». يقول نيتشه أنَّ الوعي الأخلاقي الحقيقي هو ذاك الذي لا يحايد بغية خير وبرٍّ ذاتي يناله المرء حين يُرضي مقرروا الخير من الشر ومرجعيات السلوكيات والأخلاق، ولا ينحاز لفعلٍ يُسبِّب شراً بحجة أنه شر لا مفر منه ولا بد من وجوده بغية تحقيق خير أسمى وأعمّ. الوعي الأخلاقي هو ثورة على كليهما وتجاوز انطولوجي ووجودي لحياديّة وانحيازيّة كليهما البنيوية . الحرية الأخلاقية «أخلاقية» لأنها خروج من إيديولوجيات معلّبة سلطوية تمنهج كل من الخير والشر (أو الحياد والانحياز في كليهما) وتحولهما، باسم التمرد والثورة والتغيير، إلى أدوات قمع فكرية ودوغمائية وأخلاقية لكل حرية ولكل تحقيق ذات، يقول نيتشه.

وعليه، فإنَّ الأجابة على سؤال «هل على المسيحيين أن يكونوا ثورويين ويشاركوا في الثورة لأجل الآخرين أم لا؟ هو «بالطبع يجب عليهم أن يثوروا ويشاركوا». ينطبق هنا تماماً قول ديتريش بونهوفر بأنَّ على المسيحي مسؤولية تسمية الشرّ باسمه وعليها تنبيه الآخرين إليه في سياق الحياة العامة. المسألة لا تكمن في الجواب، في الحقيقة، بل تكمن في السؤال الفعليّ والحقيقيّ. السؤال الفعليّ ليس ما إذا كان يتوجب على المسيحيين أن يثوروا ويتّخذوا مواقف ثورية أم لا؟ السؤال هو: على أيّ قاعدة يفعلون ذلك؟ على قاعدة أيّ فهم للثوروية وللموقف الثائر يجب عليهم أن يكونوا ثورويين؟ ما هو المنطلق القاعدي لهذا؟

لو انتبهنا إلى أنَّ يسوع يقول «تعرفون الحق» ولا يقول «تعرفون من يدعون للحق ويعرفونه»، سنفهم أن الثورة على قاعدة الحق تعني أنَّ المسيحيين مدعوين لا للثورة لأجل أطراف أو جماعات أو أشخاص، بل للثورة لأجل مبدأ وقضية عامّة جامعة وتمس الوجود والكيان البشريّين في كل حالةِ عيشٍ إنسانيّة. يعني هذا أنَّ المسيحيين ليسوا مدعوّين، مثلاً، للثورة ضدّ نظام سلطة استبداديّ، قمعيّ، وفاسد سياسي أو عالمي أو كنسي وضد الأشخاص الذين يمثلون هذا النظام. إنهم، خلافاً لذلك، مدعوين للثورة ضد الاستبداد والقمع والفساد بحد ذاتها: ضد كل أنواع وأوجه ومظاهر وإسقاطات ونتائج القمع والفساد والاستبداد، بصرف النظر عن هوية أو خلفيّة أو ماهيّة أو جنسيّة أو دين أوثقافة أو جنس أو نوع النظام وأفراده الذين يمارسون الاستبداد والقمع والفساد ويخدمونها. رسالة المسيح الثورية في المجتمع اليهودي الذي انتمى إليه لم تكن ضد الفريسيين والكتبة وهيرودس، لا بل هو رفض أن يتورط أو يشارك في أي عمل انتفاضيّ ضدهم. ثوروية رسالة المسيح وحياته تكمن في وقوفه ضد قمع وفساد واستبداد السلطات الدينية والزمنية بالمبدأ والقضية، والذي جعل رسالته تتحول إلى مصدر إزعاج بل وتهديد لا مفرّ منه للأفراد الذين خدموا تلك المنظومات القمعية والفاسدة والمستبدة. الثورة على قاعدة الحق هي ثورة على الشرّ وليس ضد مرتكبيه في الدرجة الأولى؛ ثورة لأجل الحرية وليس لإرضاء من يؤمنون بها ويدعون لها؛ ثورة لأجل العدالة والقانون وليس لمصلحة من يؤمن بالعدالة ويطبّق القانون أو ضدّ من يقمع العدالة ويحتقر القانون. ما لم تكن الثورة هكذا، ستكون مسيحيّاً ولاهوتيّاً فعلاً وموقفًا لا ينطلقان من معرفة الحق بل من إنحياز؛ فعلاً لا يخدم الإنسانية، بل يخدم مجموع ما من البشر.